الرامايانا

بقلم : محمد إسماعيل الندوى

تمتاز الهند بحضارتها الأصيلة وآدابها وفنونها وفلسفتها كاليونان ومصر ، لأنها كانت منبع الحضارة ومهد الثقافة . وقد تفجرت من أرضها ينابيع العلوم والفنون والمعارف التى تتسم بالأصالة وطابعها الخاص . وقد ساهمت فى هذا المجال أمم كثيرة وطوائف عديدة نزحت الى الهند فى العصور الساحقة واستوطنتها ومن أهمها بل وأكثرها قوة وأثرا وخلودا الأمة الآرية ، التى نزحت من أوربا الى آسيا واحتلت أولا بلاد الفينيقيين ثم ايران فى حدود عام ١٥٥٥ ق.م تقريبا . ومنها نزحت الى الهند بعد نصف قرن تقريبا . ولقد اختلف المؤرخون فى الموطن الأصلى لهؤلاء اذ يرى بعضهم أنهم كانوا من سكان « سيبيريا وتركستان » . وقال آخرون إنهم كانوا يقطنون بلاد « بامر » (Pamer) وقال بعضهم : انهم كانوا يسكنون فى ألمانيا وبولندا ولكن أرجح الأقوال فى هذا الصدد أنهم يقطنون جنوب روسيا (١) .

ومنذ قدوم الآريين الى الهند تغير مجرى التاريخ والفكر فى الهند ، اذ أنهم استولوا على المناطق الشمالية بعد فتحها وطرد أهلها الى الجنوب كما جلبوا معهم حضارة أوربا القديمة ومنطقة الشرق الأوسط وتقاليدهما بعد أن عاشوا فيهما ردحا طويلا من الزمن . ولكن سرعان ما امتزجت حياتهم وتقاليدهم بأهالى الهند القدماء وظهرت حياة وثقافة جديدتان تتميزان بالخصائص الآرية والمزايا الهندية القديمة على السواء . وقد وضع «رج ڤيدا» (Reg-veda) أقدم كتاب دينى للآريين ، سجل فيه حياتهم وتقاليدهم وأفكارهم السهلة والساذجة تجاه الكون وخالقه . وهذه الظاهرة تدل على أن الآريين القدامى وجهوا عنايتهم منذ أول قدومهم الى تسجيل أفكارهم ونزعاتهم . ومن ثم توالى بعد « رج ڤيدا » صدور كتب كثيرة دينية . ولما كانوا فى بادىء الأمر قد خاضوا معارك كثيرة وافتتحوا بلادا عديدة فى شمال الهند ووسعوا رقعة بلادهم من الشرق الى الغرب . فقد ساعدت هذه الأحداث والوقائع على ظهور قصص وأساطير تصور حياتهم

(١) The History of the World by Rene Sedillot p. 39.

(١) The Anvil of civilization by Leonard Cottrell p. 112

وعقليتهم وتقاليدهم وبطولتهم وقيمهم المعنوية على أبدع صورة وأجمل مظهر .

ان « الرامايانا » (Ramayana) أول ملحمة أو اسطورة فى هذا الصدد تصور المرحلة الأولى من حياة الآريين فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

وقد عاشت بين فترتى القرن الثانى عشر والعاشر قبل الميلاد فى شمال الهند فى ولايتى «أتاربراديش» (U.P.) و « وبهار » (Bihar) أسرتان كبيرتان لملوك الآريين وهما « كوسالاس » (Kosalas) « وفيديحاس » (Videhas) وكانت مدينة « أوذه » (Oudh) عاصمة « دساراتا » (Dasa-ratha ملك « كوسالا » . أما مدينة بتنة Patliputra or Patna فقد كانت عاصمة ملك «فيديحاس» الذى زوج ابنته « سيتا » لبطل الأسطورة الابن الأكبر لدسارتا وهو راما (١) .

واذا كانت « الرامايانا » عبارة عن الأحداث التاريخية التى وقعت فى هذه الفترة من الزمان ، فانها لم تسجل فى نفس الوقت على الصورة الحالية . بل مرت بمراحل كثيرة ، لأننا اذا نظرنا الى القصص السنسكريتية القديمة وأساطيرها نجد أنها ظهرت منذ القرن العاشر قبل الميلاد . فقد تناولها الشعراء باعجاب وتقدير ونظموها بالشعر السنسكريتى . وهذه الأشعار لم تسجل فى تلك الفترة بل ظلت تحفظها صدور الناس كما كان الحال فى كل أمة عاشت فى ظل البداوة . وبهذا مرت ملحمة « الرامايانا » التى ظهرت فى القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا بمراحل عديدة ، وتناقلتها الألسن من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر حتى اتخذت هذا اللون البديع الأنيق فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد (٢) .

لقد ألفت هذه الملحمة باللغة السنسكريتية الناضجة ولذلك يرى بعض الباحثين أنها ألفت فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد مرور مايقرب من ألف سنة على حدوثها، لأنها تصور شطرا من الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة . ويرى الأستاذ (F.W. Thomas) أنها ألفت فى القرن الثانى قبل الميلاد تقريبا ، اذ كانت السنسكريتية فى ذلك الحين هى اللغة الأدبية والرسمية . وقد ظهرت هذه اللغة بعد قدوم الآريين الى الهند . وهى فى الحقيقة فرع من لغات أوروبا القديمة التى نشأت منها اليونانية ثم الانجليزية والألمانية وما الى ذلك. ولذلك تسمى السنسكريتية « اللغة الهندية الآرية » (Indo-European)

كانت السنسكريتية فى بادئ الأمر لهجة أوروبية تشبه اليونانية القديمة ، تكلم بها الآريون الذين نزحوا الى الهند ، وافتتحوا ولاية بنجاب وقطنوها فى أول الفتح . وقد مرت هذه اللغة مع الاختلاط باللغة الأصلية فى الهند بعدة تغيرات كما سجلتها عدة كتب دينية هندوكية مثل «رج ڤيدا و يوبانيشاد» . ثم زادت رقعة الفتوحات واتسع سلطان الآريين الذى امتد الى عدة مناطق هندية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، واحتلوا أربع ولايات كبرى وهى « بنجاب وأتاربراديش وبهار ومدهيا براديش » . وهذه الولايات الأربع لاتزال حتى اليوم معقل العنصر الآرى ومهد الحضارة الآرية . وقد أخذت هذه اللغة فى التطور فى نحو ألف سنة . وفى خلال هذه المدة وضعت لها قواعد النحو والصرف والعروض ، وألفت بها الكتب العلمية والأدبية.

---

(١) The Ramayana of the Mahabharata by Romech C. Dutt p. 1

Hinduism by M. Sen p. 73 and the Degacy of India p. 63.

The Legacy of India p. 67.

وفى القرن الرابع قبل الميلاد اتسمت هذه اللغة بثلاث خصائص بارزة قسمتها الى ثلاثة فروع أو شعب : أولاها اللغة الكلاسيكية التى تكلم بها رجال الدين والكهنة . وقد توارثها هؤلاء كابرا عن كابر فاحتفظوا بقالبها وصياغتها فى حب وتقدير لاحد لهما ، فأصبحت هذه اللغة كبنيان مرصوص بعد تأليف «بانى» (Paini) ـ النحو الشهير ـ قواعد نحوية مربوطة لها ، وذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد . وثانيها لغة الشعراء والأدباء . وبهذه اللغة ألفت الأساطير الهندية الشهيرة مثل « الرامايانا » و « المهابهارتا » . وثالثها لغة عامة المتعلمين والمثقفين السهلة التى ألفت بها معظم أجزاء كتب «الفيدا» كما ألفت بها أيضا كتب العلوم والفنون مثل السياسة والقانون والأدب والفن (١).

وفيما يتعلق بالأبواب والفصول فى ملحمة « الرامايانا » يقول الأستاذ « رومش دوت » (Romesh) ـ باحث هندوكى شهير فى الآداب السنسكريتية ـ انها فى الأصل تحتوى على ستة أبواب فقط وتنتهى بعودة الأبطال الى ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة . ولكن الباب السابع الذى ألف بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو فى الحقيقة معيار جديد للشعر السنسكريتى اذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت فى القرون الأخيرة قبل الميلاد .

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوى على ستة أبواب أصلية وذيل فى الآخر يكون الفصل السابع

ثم تنقسم الملحمة كلها والتى ألفت بالشعر الى ٥٠٠ مقطع أو قصيدة تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت .. وبدراسة الباب السابع يظهرلنا بكل وضوح أنه ألف قبل الميلاد اذ نجد فيه بلدانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف فى عصر «راما» البطل واخوته بالمرة .

وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بأن الملحمة تصور احداث القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنها سجلت فى هذ القالب الشعرى فى القرن الخامس أوالرابع قبل الميلاد (٢) .

وهذه الملحمة ككثير من الكتب الهندوكية القديمة لايعرف مؤلفها على وجه التحديد .

وقد جاء فى « الرامايانا » نفسها أن الراهب « والميكى » الذى ساعد «راما» فى محنته فى الغابة والذى شاهد وعاصر جميع مشاهده البطولية هو الذى نظمها بعد عودة «راما» من منفاه الى «أيودهيا» . ففى هذه الآونة لجأت اليه « سيتا » زوجة راما وماتت فى ديره ، لأن راما نفاها الى الغابة . ولذلك أتيحت للراهب فرصة تربية ابنى «راما» اللذين عاشا فى كنفه تربية رهبانية . وقد جال بخاطره فى هذه الفترة الميل الى نظم مشاهد «راما» ومواقفه البطولية كلها بالشعر . فبدأ فى نظمها وقد استغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما . كلما قرض «والميكى» مقطعا حفظه ابنا راما فى نفس الوقت . وبهذا حفظا الملحمة كلها والتى تتكون من خمسمائة مقطع ، تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت . وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكى أيضا . فحضره «والميكى» مع ابنى راما اللذين أنشدا فى هذه الحفلة ملحمة « الرامايانا» كلها . وقدأثارت هذه الملحمة دهشة راما واعجابه ، وكذلك أعرب الشعب عن اعجابه الشديد بها ، وتقديره العظيم لها . فأقبل الناس على حفظها بشوق ورغبة منقطعى النظير . وبهذا احتفظت بها الصدور وتناقلتها الألسن دهرا طويلا الى أن سجلت كتابة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد (٣) .

---

(١) The Legacy of India p. 40-41.

(٢) The Wisdom of India by Lin Yutang p. 123.

(٣) The Wisdom of India by Lin Yutang p. 271.

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين فى الهند فى القرون الخالية ، لأننا نفهم أنها كالبلدان المتحضرة الأخرى فى العالم لم تسجل انتاجها الأدبى والفكرى من أول وهلة ، بل تداولت ألسن الناس «الرامايانا» دهرا طويلا ، وحفظتها الصدور زمنا غير يسير ، حتى وجهت العناية أخيرا الى تسجيلها فى الكتب بعد أن قطعت الهند مرحلة طويلة فى ميدان العلم والفكر .

ولكن الرامايانا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين بل ساهم فى أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد كما هو الشأن لملحمة أخرى شهيرة ألفت بعد الرامايانا وهى « المهابهارتا » (Mahalharata) (٢)

ويجدر بنا الآن أن ننظر الى النواحى الأدبية والفنية فى هذه الملحمة . وما من شك فى أنها من أولى نماذج الأدب والقصص فى الأدب السنسكريتى بل الأدب الهندى قاطبة . وهى غنية بالاحداث والمشاهد والحكايات والصور ، وتعتبر نواة أولى للاساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التى ظهرت فيما بعد مثل «نالا» (Nala) و « ساوترى » (Savitri) وشكنتلا . وهى صادقة فيما تحكى عن نفسها فى موضع من المواضع اذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة ، وهى التى تغذى جميع القصص وتمنح القوة لجميع الشعراء وهى درة يتيمة للشعر والشعراء (١) .

ان «الرامايانا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والأعمال البطولية التى تمثل جوانب انسانية رائعة فيها الدرس والعبرة لكل انسان يقرؤها كما يلوح فيها وفى كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والرقة والعاطفة والهدف الأساسى فيها هو المرأة والبيت فى حين أننا نجد ملحمة « المهابهارتا » تدور حول الرجل والحرب (٣) . وبما أنها أقدم تراث وصل الينا تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها .

أما الناحية الفنية فيها فهى تعطى بوادر أولى وأسسا ثابتة للاساطير الهندية التى ظهرت فيما بعد ، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة الممتلئة بالوحوش والحافلة بالأخطار والتى غامر فيها أبطال هذه الملحمة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة الى غابة ومن بلد الى بلد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حتى جزيرة «سيلان» الشهيرة التى منحت هذه القصة الشهية جوانب انسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين « الجنجا والجمنا » مثل «أودهوقنوجواله آباد» ولكن لايكاد يبين لنا فى خلال هذه الملحمة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل « دلهى » و «أجين» اللتين لعبتا دورا كبيرا فى الأدب السنسكريتى القديم ولاسيما فى ملحمة « المهابهارتا » ومسرحية «شكنتلا» (٤) وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع الى هذه المناطق . ومع ذلك يتضح لنا من خلالها معالم الهند كلها مثل طبيعتها الفتانة وجمالها الباهر وأنهارها الجارية وغاباتها المظلمة ووديانها ورعودها وأمطارها وسحبها .

وهذه الملحمة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود فى هذه

---

(١) أنظر ما جاء فى تقديم :
The Legacy of India p. 67.

(٢) The Ramayana of the Mahabharata

(٣) The Wisdom of India p. 122.

(٤) أنظر مقالنا عن « شكنتلا » فى مجلة « تراث الانسانية » الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٦٥ .

الفترة من الزمان . فلقد قطع الآريون مراحل عديدة فى تطورهم التاريخى والفكرى اذ مرت حياتهم حينا بالمادية البحتة وحينا آخر بالروحانية المحضة. وبما أن «الرامايانا» تصور أولى مرحلة حياة الآريين فى الهند فنرى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادىء السامية .

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحث الانسان على التضحية وأداء الواجبات نحو الانسانية ويذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية (١) . والسبب فى ذلك أن الانسان فى كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة فى الايمان بالله وقدرته وجبروته فى هذا الكون . ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيرا مما حدى به فى بعض الأحيان الى الكفر بالله والجرى وراء المادية والشهوانية . وقد وقعت الهند فى هذا اللون من الحياةفى العصور التىتلت «الرامايانا» كماتصورها ملحمة «المهابهارتا» . وهذا هو السبب فى أن «كرشن» الشخصية الأسطورية فى هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة (٢) .

وحينما ننظر الى القيم الروحية والمبادىء السامية فى «الرامايانا» نجد أن أحسن مايتصوره الانسان فى هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعفو والتسامح والكرم وما الى ذلك . وأول ما نصادفه فى هذا الصدد أن الملك «دساراتا» يحب ابنه الأكبر راما حبا جما ، ولكنه يقع فى خديعة زوجته الصغيرة الجميلة فيقطع لها العهد على نفى «راما» من البلاد وتولية ابنها «بهارت» العرش . ونجد أنه وفاء لعهد والده مع زوجته يترك البلاد ويهيم على وجهه فى الغابات فيما يقرب من أربع عشرة سنة ، يعانى فيها الكثير من أنواع العذاب والتعب والارهاق. كل هذا حبا لوالده وطاعة وخضوعا لمشيئته .وأما «سيتا»زوجته فتطيع زوجها الى حد العبادةوتضرب الأمثلة الرائعة للزوجة المثالية بوفائها واخلاصها وتضحياتها له حتى فى أصعب اللحظات حينما يخطفها الملك « راون» ملك سيلان ويرغمها على الزواج منه .

وحينما يرافق راما أخوه «لشمن» الى الغابة تصور هذه المشاهد نماذج حية لحب الاخوةبعضهم لبعض ، واخلاصهم وتضحياتهم . وفى ثنايا هذه المصائب والآلام يضطر راما الى اعلان الحرب على راون ملك سيلان لانقاذ زوجته سيتا الوفية من قبضته الظالمة ، ولكن هذه الحرب هى الأخرى تعطى درسا أخلاقيا رائعا لأنه يتجنب فيها اراقة الدماء ونشر الدمار فى أول الأمر ، ويحاول بأقصى مافى وسعه من جهد لايجاد حل سلمى . وحينما تدور رحى الحرب بين الفئتين يحاول راما بأقصى مايستطيع أن لاتطغى عليه ثورة الانتقام أويسيطر عليه غضب أو قهر . فكان كل همه منحصرا فى انقاذ زوجته من الملك الطاغية الذى خطفها ووضعها تحت سيطرته ظلما وطغيانا . تبدو لنا هذه الحرب ومن خلال هذه القيم المعنوية الرائعة حربا مقدسة وليست حربا دامية تصورها ملحمة المهابهارتا .

قد ساد الجانب الروحى هذه الملحمة الى حد كبير لأنها تروى على لسان راهب يصف معاركها ويسرد أحداثها سردا دينيا مقدسا . ومن أجل هذه الصبغة الروحية والقيم المعنوية فيها يرى الباحث توماس (F.W. Thomas) أنها تمهد السبيل للبوذية التى نشأت بعد ظهور هذه الأسطورة فيما يقرب من ستة قرون لأنه طغى عليها كلها ذلك الجانب

(١) The critical survey of Indian philosophy by Dr. Chandradar p. 41

(٢) قد أوردنا التفصيل فى هذا العدد فى مقالتنا عن « جيتا » فى مجلة « تراث الانسانية » الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٦٤ .

الروحى الذى يلمح فى الرامايانا بابدع مظاهره وأدق معانيه (١) .

ومن مميزات الديانة الهندوكية الآرية بالنسبة الى الديانات السماوية السامية ــ مثل الاسلام واليهودية والمسيحية ــ أنها لا تعتقد فى النبوة ولا يوجد فيها هذا التصور بتاتا ، بل تؤمن بنظرية الأوتار أو التجسد وهى ظهور الله سبحانه فى مظهر انسانى واتخاذ قالبه لهداية البشرية وارشادها الى فعل الخير فى هذا الكون . وقد نشأت هذه العقيدة لأول مرة فى التاريخ الهندوكى فى الرامايانا لأن « الفيدا » ــ أول كتاب فى الفكر الهندوكى ــ يؤمن بتعدد الآلهة التى تملك طاقات هائلة فى البر والبحر والشمس والنار والعواصف . وأما كتب « اليوبانيشاد » التى ظهرت فيما بعد فهى تعطى فكرة ناضجة عن الايمان بـ « براهمان» (Brahman) الذى لا مثيل له ولا نظير ولا شبيه اذ هو قوة هائلة تملك السموات والأرض وهذه العقيدة بدون شك تصور أقصى مرحلة للفكر الآرى حيث تزول جميع الآثار الوثنية ويتجلى التوحيد بأبدع مظاهره كالديانات السماوية السامية . ولكن «اليوبانيشاد» لا يمكن تحقق الاستفادة منه الا للمتعلمين والعلماء فقط ، ولذلك كانت الحاجة ماسة الى عقيدة تتوسط بين الوثنية وبين التوحيد ، تؤمن بها جماهير الشعب الهندوكى التى لم تبلغ مبلغا كبيرا فى مستواها الفكرى ، وهذه هى نظرية الأوتار التى ظهرت لأول مرة فى « الرامايانا » فى شخصية راما بطل الأسطورة . ثم تطورت تطورا كبيرا فى ملحمة أخرى وهى المهابهارتا وذلك فى شخصية كرشن بطل هذه الملحمة . وهذا هو السبب فى اعتقاد جماهير الشعب الهندوكى من الطبقة المتوسطة حتى الآن بأن هؤلاء الأبطال هم الآلهة الذين تقمصوا الانسان لهدايته فى هذا الكون فى حين يعتقد الفلاسفة والعلماء من الهندوس آن هؤلاء شخصيات خالدة أسطورية فى التاريخ الهندوكى وليسوا من الآلهة أبدا (٢) .

بعد استعراضنا لجوانب عديدة من الرامايانا ينبغى لنا القاء نظرات خاطفة على الجوانب الأخرى مثل المجتمع الهندوكى والتقاليد والمراسيم فيه وعلاقة الشعب بالملك وعلاقة الملك بالشعب وما الى ذلك .

ان هذه الملحمة تصور عصرها تصويرا دقيقا بحيث تتجلى أمامنا جميع مظاهرها من العقائد والتقاليد والمراسيم والحياة السياسية والاجتماعية وتوحى الينا بأننا نعاصر أبطال هذه الملحمة ونشاهدهم أمامنا كشخصيات فى نفس العصر والزمن والبيئة . وفى هذا العصر ــ كما تصور الرامايانا ــ كان الهنود متمسكين بالقيم الانسانية والمبادىء الروحية السامية والايمان بالأوتار ، وكانوا بعيدين كل البعد عن المادية والأنانية والشهوة النفسية . . ومن أهم ظواهر المجتمع فى هذا العصر أن تعدد الزوجات كان شائعا . ومن أجل ذلك نرى الملك دساراتا قد تزوج بما يقرب من أربع زوجات . وهذه الظاهرة هى التى جلبت مشكلات وويلات عدة كنفى راما من بلده وموت دساراتا بسبب ذكريات ابنه الأكبر الذى اختار لنفسه الغربة والنفى من أجل أبيه .

يقول الدكتور «رادها كرشنان» ــ الفيلسوف الهندوكى الشهير ورئيس جمهورية الهند ــ : ان هذه الظاهرة فى الرامايانا سيئة للغاية لأنها تفتح المجال لتعدد الأزواج الذى لا خير فيه للانسان أبدا . وقد امتلأت قصور دساراتا بالنساء والحريم ودعا الى الاكتفاء بزوجة واحدة (٣) .

(١) The Legacy of India p. 64

(٢) Hinduism p. 74

(٣) The Hindu view of life p. 86.

وحينما ننظر الى راما الذى تولى عرش أبيه بعد العودة من المنفى لا نجده مجرد ملك يملك الأرض ويأمر وينهى ، بل نجده بجانب ذلك محبا لشعبه عطوفا عليه ، كأنه أب ممتلىء قلبه بالحنان والشفقة والرحمة على بنيه . وكذلك أعرب الشعب عن شكره وتقديره واعجابه به الى حد بعيد حتى اتخذه بطلا أسطوريا والها من الآلهة .

وخلاف وصف الرامايانا لعصره يبدو لنا أنه عصر ذهبى عاش فيه شعبه ممتعا بما ساده من الطمأنينة والرفاهية والوئام . لأن هؤلاء الملوك سعوا وراء تحقيق رفاهية الشعب وتوفير أسباب الراحة له سواء أكان دساراتا أو راما ـ بطل الملحمة الذى اتخذه الشعب الها من الآلهة لشدة اعجابه به وتقديره له . كذلك يتجلى راما فى الملحمة كبطل وانسان يتصف بالأخلاق العالية ويحمل قوى معنوية عظيمة .

وبهذا تركت الرامايانا أثرا قويا فى نفوس الهندوس واحتلت مكانة الصدارة بين غيرها من الملاحم والأساطير . كما ساهمت مساهمة كبيرة فى رفع معنوية الشعب ومنحه قوة روحية دافقة وايقاظ شعور الحب والتضحية فى نفوس الهندوس لتقديس وطنهم ومعتقداتهم الدينية وشخصياتهم الأسطورية الخالدة الى حد العبودية .

ينبغى لنا الآن بعد تحليل الرامايانا تحليلا دقيقا ووصفها وصفا صادقا أن نقارنها بما يشبهها من الملاحم والأساطير لدى الأمم المتقدمة فى العصور الساحقة . وقد حاول بعض الباحثين وعلى رأسهم (Romesh.C. Dutt) و (Lin Yutang) مقارنتها بملحمة يونانية شهيرة هى الأوديسه (Odyssey) ان الأوديسه هى احدى ملحمتى « هوميروس (١) » الخالدتين والأخرى هى « الالياذة » . وتتكون الأوديسة من أربعة وعشرين نشيدا . يروى لنا الشاعر فى الأناشيد الأولى (١ ــ ٤) محاولة « تليماخوس » البحث عن أبيه « أودوسيوس » الذى طال غيابه بعد سقوط «طروادة» . فلما وصل الابن الى بلاط « فيلاوس » عرف أن أباه قد وقع أسيرا فى كاليبسو. ثم يصف لنا الشاعر وصول بطل «الأودبسه» الى أهل « فاياكيا » حيث يرحب به الملك (٥ ــ ١٢) ثم يعود « أودسنيوس » ويعود ابنه الى «ايتاكا » ويتفقان على تدبير حيلة للانتقام من العشاق الذين ضايقوا « بنيلوبا » (Panelope) فى غيبة زوجها (١٣ ــ ٢١) فيقتلهم « أودسيوس » (٢٢) ثم يكشف عن شخصيته لزوجته ويسترد حكمه ويعيش آمنا فى وطنه (٢).

يقول الاستاذ (Lin Yutang) ان كلا من الرامايانا والأوديسة يتناول الغربة والنفى والتشريد ، لأن راما يهيم على وجهه فى الغابات تصاحبه زوجته المخلصة « سيتا » كما يخرج « تليماخوس » فى البحث عن أبيه الذى طال غيابه بعد سقوط طروادة . وثمة تشابه آخر بينهما وهو أن « سيتا » بطلة الأسطورة تقع فى اختبار شديد لوفائها واخلاصها لزوجها وتخرج بنجاح فى امتحانها ولا يمس شرفها وعفتها خلال هذه الملحمة بشىء. وكذلك فى « الأوديسه » تختبر « نيلوبا » زوجة الملك « أودوسيوس » بعد غيبة زوجها (٣) . وهى الأخرى تعود الى زوجها بعد أحداث طويلة. وهذه

(١) وهو أعظم شعراء اليونان الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد فى آسيا الصغرى فى احدى المدن الآتية : « أثينا » و « ادنير » و « خيوس » و « كولوفون » . (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٢١) .

(٢) أنظر : « الموسوعة العربية الميسرة ص ٢٥٧ .

(٣) The Wisdom of India p. 122 — 123.

الملحمة اليونانية تحمل تلك القــوى المعنــوية . والأخلاق الانسانية التى تمتاز بها طبيعة الهنــد وتصورها ملحمة « الرامايانا » . ولذلك يقــول الأستاذ (Romesh Dutt) : أن كلا من راما وسيتا يعطى أروع مثال للانسان الــكامل الذى نبتغى وجوده فى حياتنا ، ويمثل المثل العليا التى تتلمسها ونريدها . وهما يحملان قيما انســانية رائعة اذ تتمثل فيهما البطولة والشجاعة والمصابرة والصمود أمام الصعوبات والمشكلات . وبهــذا يضرب كل منهما مثلا رائعة للحيــاة الفضــلى . وهذه الحياة الطيبة هى التى يتطلع اليها الهندوس وتطالب بها دياناتهم لتكون فى سلوكهم ومعاملاتهم، وتصور نفس هذه الحياة المثــالية « الكوميــديا الالهية » التى ألفهــا « دانتى » (Dante) فى

فى القرون الوسطى فى أوروبا لاعطاء صورة أوربا الروحية . ان قيمنا الانسانية ربما لا تتلاءم مــع القيم القديمة . قبل المسيح وبعــده الى القــرن الرابع عشر الميلادى الا أننا رغم ذلك نجد أنفسنا فى مسيس الحاجة اليها اذ لايمكن لنا التغافل عنها مهما تغيرت الظروف ، لأنها تمثل مبادىء ســامية للانسان فى فترة من الفترات التاريخية القديمة(١)

ان هذه القيم الروحية فى «الرامايانا» لم تلعب دورها فى حياة الهندوس الى أمد بعيد بل سرعان ماطرأ عليها ــ كسنة هــذا الكون ــ أنواع من التغيرات والتقلبات اذ ظهرت فلسفة جديدة تسمى بالسنسكريتية (Vasihnavism) وهى عبــارة عن التقاء قدرة الله سبحانه مع الايمان بالله الذى وصل اليه الانسان . وقد نشأت هذه الفلسفة فى القرن الثانى قبل الميــلاد وأذابت آثار الرامايانا والمهابهارتا الخالدة التى سيطرت على مجامع قلوب الناس ردحا طويلا من الزمن وذلك بفضل جهــود كهنة هذه الفلسفة (٢) . وهذه الظاهرة هى التى جعلت الضعف والانحلال يدبان فى المبادىء التى نادت بها هذه الأساطير الخالدة .

ولكن الهندوس رغم كل التطورات التى طرأت على العقائد الهندوكية وفلسفتها على مرور الزمن يعربون عن تقديرهم وشكرهم للرامايانا واعجابهم بها الى حد كبير ، لأنها تتحلى بأغلى آيات القيم والمبادىء . وهذه الملاحم لاتزال تقرأ فى المعــابد والأماكن المقدسة وفى البيوت ليلا ونهارا للموعظة والعبرة والدرس .

ومن أهم الظواهر فى الرامايانا والتى جذبت اليها نفوس الهندوس وتملكت وجدانهم وعواطفهم المثل العليا التى تضربها سيتا فى هذه الملحمة كامرأة هندوكية مثالية . ولذلك لاتزال تعلق النســاء الهندوكيات آمالهن العريضة على سيتا ويســتعدن ذكرياتها وبطولتها وتضحياتها وحبها المتفانى لزوجها واخلاصها له ووفاءها ليحاكينها فى حياتهن الخاصة ويتمثلن فى تقديس وعبادة .

قد استوحى عشرات من المفكرين الهنــدوس وزعمائهم الدينيين فى شتى مراحل التاريخ الهندوكى من الرامايانا ، ولا يزالون يستمدون منها أصولا ونماذج لحياتهم المعاصرة ويستلهمون منها الدروس والعبر والموعظة فى حياتهم الروحية وسبــلوكهم الشخصى . فقد دعت شخصية راما الأســطورية المثالية الانسان الكامل للهنــدوس وهو الزعيم الروحى «رامانوجا» (Ramanuja) أن يرفع راية التوحيد فى المنطقة الجنوبية فى القرن الثــانى عشر الميــلادى . وكــذلك دعا «رامانانندا» (Ramananda) ــ المفكر الهندوكى الشــهير فى القرن الثالث عشر الميلادى ــ شعب شمال الهند

(١) The Ramayana of the Mahabrarata p. 159.

(٢) The Legacy of India p. 369 and A Critical Survey of Indian Philosophy p. 335.

الى التوحيد . أما الزعيم الروحى الكبير « كبير داس» (Kabirdas) الذى عاش فى نفس القرن تقريبا فقد دعا الى الوحدة بين الهندوس والمسلمين قائلا : ان اله محمد « صلى الله عليه وسلم» هو نفس الاله الذى يتمثل فى شخصية راما وعلى ابن أبى طالب (١) . وهذه كلها اشارات صوفية توحى الينا بأن الله قد تمثل فى شخصية راما كما تعتقد بعض الطوائف من الشيعة فى أن الله برز فى شخصية على بن أبى طالب ، ولاتزال تلتمس من الرامايانا معظم الطوائف الهندوكية — ومن أبرزها «وشنو» (Vishnu) و « سيوا» (Siva) اللتان تشكلان أغلبية ساحقة فى الهند — المعونة الروحية (٢) .

وبعد هذه الجولات الطويلة العريضة والنزهه الممتعة فى رياض هذه الملحمة الشهيرة يحسن بنا الآن أن نقف وقفة غير يسيرة أمام ترجمتها الى شتى اللغات ، وتعريفها للأمم الأخرى واعجاب الناس بها فى عدد من أقطار هذه الدنيا، وزيادة العناية بها فى الأوساط الأدبية العالمية .

ولعل أقدم ترجمة للرامايانا قد ظهرت مبكرة فى لغة «تامل» أشهر لغات جنوب الهند فى سنة ١١٠٠م . ثم توالت لها ترجمات كثيرة الى اللغات الهندية الرسمية والشعبية . أما الرسمية فقد ترجمها الشيخ عبد القادر البديوانى الى اللغة الفارسية — وهى اللغة الرسمية الهندية فى العصور الاسلامية كلها — وذلك فى عصر الملك المغولى الشهير « جلال الدين أكبر » الذى ازدهرت فيه العلوم والفنون وشهد أعظم نشاط لحركة الترجمة فى التاريخ الهندى أجمع . لقد بدأ الشيخ عبد القادر البدايونى ترجمته الى اللغة الفارسية فى سنة ٩٩٥ هـ — ١٥٨٦م وأنهاها فى سنة ٩٩٩ هـ — ١٥٩٠ م . كانت هذه الترجمة تتكون من عشرين جزءا ، وأهداها المترجم الى الملك جلال الدين أكبر فسر به الملك سرورا بالغا ، لأنه كان يوجه عناية كبرى الى الحضارة الهندوكية وفلسفتها بدون سابق مثال له فى تاريخ الملوك المسلمين الهنود أجمع . وتوجد نسخ خطية كثيرة من هذا الكتاب فى معظم مكتبات الهند حتى وقتنا هذا .(٤)

أما فى العصور الأخيرة فقد ترجمها الى اللغة البنغالية — لغة الشاعر طاغور — الأستاذ (Kritibas) والى اللغة الهندية الأستاذ (Tulasi Das) والى لغة « مارهاتا — لغة ولاية بمباى — الأستاذ (Sridhar) أما ترجمة «تولاسيداس» الى اللغة الهندية فتعتبر ترجمة قيمة ودراسة علمية دقيقة. ومن أجل ذلك ترجمت دراسته الى اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

كان هذا المترجم معجبا جدا بالرامايانا ومبادئها حتى انه كان يفتخر حين يسمى ويلقب بالرجعى اذ لاحت عليه الآثار الرجعية بسبب اعجابه بالرامايانا بكل جوارحه ، ولايمانه القوى بما ورد فيها من التقاليد والمبادىء والتعاليم (٥) .

أما العناية بها فى العصر الحديث فى بلاد أوربا فقد وجدت فى «ايطاليا» أول ما وجدت حيث ترجمها الى اللغة الايطالية الأستاذ (Gorresio) فى ١٨٤٣ — ١٨٦٧ م على نفقة ورعاية « شارل البرت » — ملك ساردينا . ثم ترجمها الى الفرنسية الأستاذ (M. Hippolyte) وكذلك ترجمت الى اللغة الانجليزية فى مدينة كلكتا بالهند أيام احتلال

---

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 162 — 163.

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٤) أنظر : مبرم تميورية (باللغة الأردية) للأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن ص ٦٣ .

(٥) The Legacy of India p. 380.

الانجليز فى بداية القرن العشرين . وقد أعيد طبع هذه الترجمة فى مدينة «بمباى» بمقدمة قيمة للأستاذ (Ramanuju) ثم طبعت هذه النسخة بعناية من الأستاذ (Hemchandra Vidyaranta) فى مدينة كلكتا فى ١٨٨٥ م . ثم وجه الأستاذ (Ralph Griffith) عنايته الى ترجمة الأجزاء الستة الأولى من الرامايانا الى الشعر الانجليزى ،والجزء السابع وهو الملحق الى النثر الانجليزى (١) . وبهذا وصلت ملحمة الرامايانا الى أوربا واحتلت مكانة مرموقة فى آداب أوربا حتى أعجب بها أدباء أوربا ورحبوابها اعجابا وتقديرا وألموا بها شرحا وتفسيرا

تلخيص « الرامايانا »

بعد أن قمنا بدراسة علمية لملحمة «الرامايانا» وأبدينا مزاياها وخصائصها البارزة ، و استعرضنا مكانتها العلمية والأدبية لدى الأدباء والكتاب فى العالم ينبغى لنا الآن أن نلخصها لتكون لها فى أذهاننا صورة واضحة . وسنحاول هنا أن نلخص ما أورده الأستاذ (Romesh Dutt) فى كتابه (The Ramayana of the Mahabharato) لأنه أشهر باحث فى أساطير الهند وآدابها . فقد بذل مجهودا كبيرا فى اعداد هذا الكتاب .

يقول فى خطته فى الكتاب : انه اختار منهذه الملحمة الكبيرة أهم الأحداث والوقائع والمشاهد التى لاغنى عنها ، والتى تعرض الكتاب عرضا صحيحا دقيقا . من بين ٢٤٠٠٠ بيت من أصل الملحمة اختار ٢٠٠٠ بيت فقط رعاية للسهولة والسرعة واقتصادا للوقت . ورتبها فى ٨٤ فصلا صغيرا فى أسلوب سهل أنيق وأردف كل فصل بملحوظات هامة دقيقة (٢) .

تبدأ الملحمة بوصف مدينة «أيودهيا» ــ عاصمة دساراتا ــ ووصف جمالها وبهائها ورفاهية أهلها وايمان شعبها بالآلهة وأداء طقوسهم الدينية لها . كان الملك موضع الاعجاب والتقدير فى البلاد اذ كان يجلس بين يديه ويركع أمامه القساوسة والكهان . كان الملك نموذجا حيا للأخلاق العالية والمبادىء السامية . وكان الشعب فى هذا العصر يمارس لزراعةباقتناء البقر والغنى والغلةوالذهب . كانت الأخوة والمحبة والمواساة والمساعدة من أهم مميزات هذا الشعب . أما الخداع والمكر والخيانة والسرعة والأخلاق الرذيلة فلم تعرف فى هذه البلاد مطلقا . وكذلك لم يشهد هذا العصر التفرقة ولا الفوارق الطبقية بل كانت جميع الطوائف والجماعات تؤدى واجباتها أداءا كاملا . وكانتهذه البلاد بعيدة كل البعد عن المعارك واستخدام السيوف والرماح ، بل كانت ترفع دائما شعارات السلم والأمن والطمأنينة . ومع ذلك فقد كانت تحرسها حراسة كاملةمن كل جانب الأفيال القوية التى كانت تجلب من غابات الهملايا . كانتأيودهيا عاصمة جميلة عامرة مزدنة بالعمارات الفخمة والهياكل العظيمة ومحفوفة بالبساتين والروضات.

وطبقا للتقاليد الهندوكية عند اختيار الزوج للأميرات أعلن «جاناك» ــ ملك ڤيديجاس ــ مسابقة فى الرماية لاختيار أحسن رام كزوج لابنته «سيتا» . فيتدفق آلاف الأمراء من أطراف الهند وجوانبها على بلاط ملك ڤيديجاس التى تقع فى ولاية بهار . وكان من بينهم «راما» ابن الملك «دساراتا» . وقد عرض الملك «جاناك» علىهؤلاء الأمراء الوافدين أداء مهمة شاقة لاختبارهم ، وهى حمل وكسر أقدام وأثقل قوس يملكه من العصور الغابرة . وقد فشل فى تنفيذ هذه المهمة كل من حضر هذه المسابقة . وتقدم راما بدوره ، وما أن فتح وشد وتر القوس حتى تحطم القوس فى طرفة

(١) The Ramayana of the Mahabhrata p. 161.
(٢) The Ramayana of the Mahabharata p. 161.

عين وارتفع منه صوت هائل مدو بلغ عنان السماء ، وصم آذان الناس ، فأغمى على الحاضرين أجمعين ، وتردد صداه فى الجبال والوديان والغابات المحيطة بالمدينة حتى سمعه الناس فى البلدان المجاورة . ثم ساد الهدوء وأفاق الناس من غشيتهم ، فقام الملك يعانق الأمير «راما» وأعرب عن رغبته المخلصة فى تزويجه من ابنته الجميلة الحبيبة لديه تقديرا لشجاعته وبطولته .

وقد وصل هذا النبأ الى الملك «دساراتا» فى «أيودهيا» ، وكان جالسا ساعتئذ على أريكته وبين يديه وزراؤه وقساوسته وندماؤه . فهنأه الجميع على بطولة راما وشهرته الفائقة فى البلاد النائية حتى طار الملك فرحة وسرورا ، وغادر بلاده لحضور حفل زواج راما الى «ڤيديها» . فاستقبله الملك جاناك استقبالا منقطع النظير ، وأنزله منزلة السمع والبصر ، وأدى بمناسبة مقدمة جميع المراسيم الدينية . ثم أعد عدة ضخمة لحفلة الزفاف . فقد غطى السرادق بالأكاليل والباقات من الزهور والروائح والعطور وقرئت الأناشيد المقدسة من «الڤيدا» . ثم جلس العريس والعروس بين يدى الكهنة يلتف حولهما آلاف مؤلفة من الناس ومن بينهم الملوك والأمراء والوزراء والندماء ، حتى تم الزواج بمهرجان عظيم . ثم عاد راما مع عروسه سيتا وأهله وذويه الى أيودهيا .

كان راما يعيش حياة طيبة مع زوجته ويؤدى جميع واجباته الدينية ، لأنه كان راسخ الايمان بالآلهة . اذ كان يعبدهم ويقدسهم حتى رضى عنه الرهبان والكهنة واحترموه احتراما بالغا .

ولما بلغ دساراتا من عمره مبلغا كبيرا وضعفت قواه عزم على تتويج ابنه الأكبر راما ليتولى عرشه . وعقد لهذا الأمر اجتماعا كبيرا حضره جميع أبناء الشعب وأطلعهم على قراره بتولية ابنه راما العرش . فوافق الجميع على هذا القرار ورضوا به اذ أنهم كانوا يحبون راما حبا جما ويقدسونه تقديسا بالغا . ثم أعدت العدة لتتويج راما فزينت البلاد وزخرفت القصور واحتشدت الجماهير . فقام راما المتدين التقى يصلى الى الهه « ناراين » الذى خلق جميع المخلوقات ، وقدم له الهدايا ووضعها ، على النار التى أوقدت لهذا الغرض . ثم أخذ ما بقى من النار وأكله بركة وثوابا واعتكف الليلة كلها ساهرا على الحشائش الخضراء التى فرشت بها أرض المعبد يعبد «ناراين» ويطلب منه العون والتوفيق . وكذلك فعلت زوجته « سيتا» العفيفة الطاهرة اذ سهرت الليلة وظلت صائمة حتى طلعت الشمس وخرج الآلاف لحضور احتفال التتويج .

وفى غمرة هذه الفرحة والسرور ليوم التتويج ، حدثت حادثة غريبة غيرت مجرى الحياة لكل من فى القصر ، وحطمت الآمال والأمانى ، وحولت الحياة الجميلة الى ويلات ونكبات ومآسى . وهذه المآسى هى التى خلقت أسطورة الرامايانا الخالدة التى تعتبر آية الأدب والفن بين الآداب العالمية . كانت لدساراتا الملك زوجة رابعة تسمى «كايكيا» ملكة «كايكياس» التى أنجبت له ولدا شجاعا سمى «بهارت» فكانت هذه الملكة تحب ابنها وتنفرد بحبه دون الآخرين من أولاد «دساراتا» ، وتحسد راما وتحقد عليه . فلما رأت الزينة والزخارف والبهجة والسرور فى العاصمة كلها بمناسبة الاحتفال بتتويج راما راودت نفسها على أن تحطمها وتحولها الى حطام وخرائب لبناء مجد ابنها «بهارت» وتتويجه ليخلف أباه دساراتا على العرش . لأنه لا أمل هناك فى اعتلاء ابنها بهارت العرش اذا تم تتويج راما ، لأنه كبير أبناء دساراتا ، والذى يستحق العرش ومن يخلفه ابنه أو «لشمن» أخوه من أبيه فهو الآخر أقرب

الناس الى راما وسوف ينال منه مالا ينـاله بهـارت .

وقبيل افتتاح الحفلة يبحث الملك عن زوجته الرابعة «كايكيا» فلم يجدها فى حـرم القصر . فاندهش الملك وزادت حيرته واشتد خوفه لأنه كان يحبها حبا كبيرا ووهب لها قلبه ووجدانه وشعوره وعواطفه وذلك لجمالها الساحر وسنها الصغيرة . وبعد أن طال البحث عنها اذا هو يراها ملقاة على أرض غليظة تنفجر بكاء وتنهمر الدموع من عينيها. فدهش الملك لهذا المنظر الأليم وانحنى فوقهـا وحملهـا على ذراعيه ومسح الدموع من عينيهـا وسألها عن سر بكائها وألمها وأحضر لها جميـع الأطباء والكهنة لمعالجتها . ولكنها مع ذلك تزداد بكاء وألما حتى صار الملك فى غاية الحيرة والخوف ومن شدة العطف عليها حلف على أن يحقق لهاجميع طلباتها مهما كانت شاقة وصعبة على أن تفتح فمهـا وتحكى حكايتها . وحينئذ ابتسمت الملكة وقالت : انك عاهدتنى أمام الآلهة على انجاز كل طلباتى . وطلبى منك الآن هو أن توقف تتويج راما وتنفيه الى الغابات لمدة أربع عشرة سـنة وتولى ابنى «بهارت» على العرش . وقع هذا الكلام على قلب دساراتا كصاعقة وأظلمت الدنيا فى عينيه ، فلم يكد يبين له شئ ، وفقد وعيه وشعوره . ثم استعادهما بعد مدة ، وطلب منها أن تسحب هذا الطلب ولكنها أبت وأصرت على تحقيق ماوعدها به .

وقد انتهى موعد الاحتفال وارتفعت الشـمس ثم ساد الظلام . وفى الصباح الباكر لليوم الثـانى حضر «راما» الى أبيه وزوجته «كايكيا» ، ومس رجليهما أدبا واحتراما ثم سأل أباه عن الوجـوم السائد على وجهه ، وسأل «كايكيا» عن سكوتها، فأجابت أن والدك قطع على نفسه وعدا يجب عليك الوفاء به ، وسأخبرك بهذا الأمر اذا وعدتنى عـلى انجازه خضوعا لوالدك وطاعة له كابن مخلص .. فتعهد لها راما بتحقيق ما وعدها أبوه به . فتقـول حينئذ : يجب عليك الآن أن تترك البلاد وتعيش فى الغابات لمدة أربع عشرة سنة وسيتولى أخوك بهارت الحكم بدلا منك .

يستعد راما للسفر وفاء لوعد أبيه . وهنا تتجلى المواقف الانسانية الرائعة وهى أن راما بعد قراره واستعداده للخروج من البلاد وللعيش فى الغابات يذهب الى زوجته سيتا ويستأذنها وينصحها بالبقاء فى القصر مطيعة وخاضعة لكل من فيه من أبيـه وأمه وأخيه بهارت الذى سيتولى العرش بعـده وينصحها بخدمة هؤلاء وتوفير وسائل الراحة لهم . ولكنها تأبى الا أن تخرج معه وترافقه أينما ذهب وتشاركه السراء والضراء لأن أبواها علماها هـذا الأمر منذ صغر سنها ، وليست حياتها الا جـزءا من حياة زوجها ، وان سعادتها تكمن فى سـعادة زوجها وشقاءها فى شقائه .

ثم يذهب الى أخيـه « لشمن » ابن ملكة «سوميتر» من والده ليستودعه فاذا هو الآخر مثل «سيتا» يلح الحاحا شديدا على مرافقته ومشاركته فى محنته والمحافظة على سيتا من الكرب والغـم والمغامرة بنفسه من أجلها بسيفه ورمحه . ومع ذلك يحاول «راما» اقناعه بالبقاء لخدمة أبيه وأمه وأهله كلهم ، ولكن «لشمن» لايرضى بذلك ولا يرى له عيشا فى «أيودهيا» بعد مفارقة أخيه الأكبر فيصحبه هو الآخر فى مغامراته .

ثم يقف الجميع بين يدى ملكة « كوساليا » والدة راما التى تنفجر بكاء من حديثهم ، ثم تتقدم باكية الى «سيتا» وتقبل جبينها وتقول لها : انك تتركينى لترافقين زوجك فى محنته . انك سـعيدة بهذا القرار ، لأن الزوجة لها أن تضحى من أجـل زوجها بكل غال وثمين وتصاحبه فى كل حين وآن،

مهما واجهت من الصعوبات ، ومهما كانت التضحيات لكى توفر له وسائل الراحة وتزيل عنه الغم والكرب ثم تقترب من ابنها راما وتمس جبينه بيديها وتودعه وتدعو له لتوفقه الآلهة فى سفره ويسددوا له خطاه ويباركوه ، وينقذوه من الآلام والأخطار .

فلما حل موعد الرحيل جاءت العربة لتركب فيها «سيتا» و «راما» و «لشمن» بعد أن جهزوا جهازا كبيرا لهذا السفر بما يحتاجون من الأسلحة والأغذية والملابس وما الى ذلك . وحضر آلاف من أبناء الشعب الذين كانوا يكنون لراما احتراما بالغا وحبا فائقا ليودعوه . كان المنظر قبل مغادرة القصر مثيرا للغاية . فقد تعالت الصرخات من كل جانب وانحدرت الدموع من عيون الناس . وكان كل واحد يقف مكانه فى خشوع وبكاء . ثم حضرت الملكات باكيات صارخات وجاء الملك دساراتا وهو ينفجر بكاء . وما ان وقعت عيناه على راما حتى وقع مغشيا عليه . فأمر راما سائق العربة فى أن يسرع بالرحيل لأنه لايملك القدرة على رؤية هذا المشهد المثير المروع ، ولايقدر على مشاهدة والده ولا أمه ولا شعبه . وهم على ذلك الوضع فسارت العربة بسرعة تاركة وراءها حياة القصور والجنات والأنهار الى غابات لاراحة فيها ولا طمأنينة ولا سكون .. وبعد سفر مرهق طويل ولمدة ستة أيام وسط الغابات ألقت هذه القافلة عصا الترحال فى موضع من الغابة وتحت ظلال شجرة باحثة عن مسكن مريح لمدة يسيرة من الزمن تسترجع فيه أنفاسها وتستجمع قواها ثم تواصل رحلتها .

صور الشاعر هذه الرحلة الشاقة تصويرا صادقا بحيث تتمثل أمامنا جميع الصور للغابات والأشجار والطيور والوحوش وكأننا نشاهدها الآن ولا نجد ثمة فرقا بينها رغم مرور آلاف السنين على هذه الصور الممتعة ، لأن طبيعة البلاد الثابتة وجمالها الساحر لم تطرأ عليهما تغيير شامل . فقد وصلوا فى اليوم السادس الى جبل صغير يسمى « شتراكوتا » بين نهرى « الجنجا » و « الجمنا » بقرب مدينة «اله آباد» والتى اتخذها الهندوس فيما بعد مكانا مقدسا لهم . ويقال : ان هؤلاء قد التفوا هناك بشاعر شهير هو « المقدس والميكى» الذى ألف ملحمة « الرامايانا » كما أسبقنا القول (١) .

وهناك فى أيودهيا لم ينس « ودساراتا » «راما» لحظة واحدة بل ظل يبكى عليه ويتحرق شوقا لرؤياه ويذكره . وكلما مضت الأيام كانت ذكرى راما تزداد شدة وعنفا حتى مات دساراتا بهذه الذكريات الحزينة ومن جراء ذلك .

خلال هذه الأحداث كلها لم يعرف « بهارت » الذى أرادت له أمه تولية العرش بدلا من أخيه «راما» شيئا مما حدث ، لأنه كان فى مهمة عسكرية فى بلاد نائية . فلما عاد الى أيودهيا وجد فيها أحداثا وتطورات لم يتصورها . فقد توفى والده «دساراتا» ونفى أخوه الى الغابات . فدهش بما حدث ، ورفض الجلوس على العرش كما أرادت له أمه وخرج للبحث عن أخيه فى الغابات . وبعد أيام حافلة بالتعب والارهاق وسط الغابات لاح له عن كثب دير لراهب من الرهبان شيد بالأوراق والأغصان على صورة كوخ صغير . فظن أن الراهب الذى فيه سوف يدله على أخويه وسيتا . وكان هذا الدير فى الحقيقة بيت سيتا الذى كان يحرسه «لشمن» بسيفه وقوسه حتى لايصيبها مكروه ، وكان أخوه راما يخرج ويجيء . فدخل بهارت الدير فوجده بيت راما فانكب على قدمى أخيه يقبلهما فى حب وحنان لاحد لهما ، وطلب منه العفو وألح عليه فى العودة الى البلاد وتولية العرش .فقام

(١) أنظر : The Wisdom of India p. 159.

راما يعانقه ويقبله ويسأله فى لهفة عن أحوال أبيه وأمه وأم لشمن وأم بهارت وشعب أيودهيا وكبار رجال السياسة والوزراء . فأخبره بهارت بأن دساراتا قد مات متأثرا بذكراه والبكاء عليه. وأما أمه « كايكيا » فهى أيضا تلوم نفسها على ما فعلت وتقضى أيامها فى بكاء وقلق وندم لأن أنانيتها هى التى قضت على حياة دساراتا وجلبت المأساةالكبرى للبلاد كلها . ثم أخبره أن الشعب هو الآخر يذكره ولا ينساه ، كما أن رجال السياسة يذكرونه باستمرار وينتظرون قدومه فنظر اليه . فاذا أمه الملكة « كوساليا » التى رافقته للبحث عن راما قامت بين يديه . وتحركت عواطفها حينما رأته فى ملابس خشنة مصنوعة من الأوراق والأغصان كما رأت كذلك فى نفس هذا المنظر « لشمن » أخاه الوفى وسيتا زوجته المخلصة . ولكن راما أبى العودة الى أيودهيا قبل مضى أربع عشرة كما قطع والده على نفسه الوعد لزوجته « كايكيا » وذلك ايفاء له ، لأنه تعهد بذلك أمام الآلهة ، وهو الآن فى السماء بين يديها . وحينئذ يقول «جابالى» الفيلسوف الهندى آنذاك الذى كان يشك فى الآلهة وفى الآخرة : « كان عليه أن لايترك عرشه بسبب الايمان بالأوهام ، لأنه لايعرف على وجه اليقين أن والده يعيش الآن بين الآلهة فى السماء أم لا ؟ ولكن راما يعلن ايمانه بالآلهة وبالآخرة بحماس واندفاع منقطعى النظير ويصر على توفية ماقطع والده على نفسه من التعاهد . ثم ينصح راما أخاه «بهارت» بنصائح غالية لرعاية أهله وشعبه وتوفير وسائل الراحة والرفاهية للناس وبذل كل الجهود فى سبيل سعادتهم وطمأنينتهم ،ثم يودع بهارت ومن معه كلا من « راما ولشمن وسيتا » ليستكملوا مدتهم فى الغابات بين البكاء والدموع ، ويحمل بهارت معه ــ عند عودته ــ أحذية راما ليضعها على العرش ويحكم أيودهيا بالنيابة عنه .

لقد بدأت الآن مرحلة جديدة فى حياة راما. لأنه قرر مغادرة المناطق الشمالية من الغابات حيث يتردد عليه أهله ، وشد الرحال الى الجنوب. فألقى عصا الترحال فى غابة مظلمة بقرب نهر « جود أوارى » الذى يقع الآن على نحو مائة ميل تقريبا من مدينة بمباى . وقد رحب بهم هناك راهب كبير وهو « اجاستيا » وأعد لهم مسكنا بقرب مسكنه . ويذكر أن هذا أول وفد للآريين فى جنوب الهند ، اذ أن هذه المنطقة كانت غاصة بالدراوديين ــ السكان الأصليين ــ ولم يتعرف هؤلاء حتى الآن على الديانة الآرية وتقاليدها . ولعل القدر قد شاء أن تكون محنة راما ورفقائه أول نافذة لتسرب الفكر الآرى الى جنوب الهند .

وفى يوم ما من الأيام صادف راما فى هذه الغابة المخيفة امرأة جميلة رآها واقفة تنظر اليه فى دهشة وتعجب من جماله وشبابه ، ثم تقع فى حبه من النظرة الأولى،فتتقدم اليه ثم تسأله عن اسمه وبلده . فيحكى لها قصته . وهى بدورها تحكى له قصتها وتقول : انها تسمى « سرابا ــ ناكها » وهى ملكة البلاد ، وأخوها «راون» ملك سيلان وهى انسانة غريبة تستطيع أن تتخذ عدة أشكال. ثم تعرب عن اعجابها الشديد به وحبها المتفانى له وتعرض عليه الزواج ليعيش معها حياة سعيدة فى وسط الغابات ثم تذم أمامه « سيتا » زوجته المخلصة وتطعنها فى جمالها وكذلك تطعن لشمن وتقول : انه ولد صغير لايفهم ولايعقل . ولايتحمل راما هذه التهم ولا تلك الطعنات الموجهة فى زوجته وأخيه فيقول لها بكل هدوء وبكل صراحة : انه متزوج من سيتا ، وهى زوجة مخلصة الى أقصى حد

يمكن ، ولذلك لايمكن له الزواج منها . أما لشمن فهو أعزب وفى ريعان شبابه وأنه فى مسيس الحاجة الى الزواج والى اتخاذ رفيقة لحياته . وهو مستعد لأن يزوجها منه .فتعرب عن موافقتها على ذلك ولكن «لشمن» يحتقرها ويقول لها : انى خادم راما فهل ترضى بالزواج من خادم؟ فتثورغضبامن هذا الكلام متألمة وتهدد بالانتقام من الجميع بسبب هذه الاهانة التى وجهت اليها .

وذات يوم رأت «سيتا» غزالا جميل المنظر يتحلى بأنواع الحلى، ويتزين بأفخر أنواع الزينة مارا أمام بيتها . فنادت لشمن وأمرته باصطياد هذا الغزال والاتيان به اليها . ولكن لشمن منعها من اصطياد مثل هذا الحيوان،لأنه فيه خطرا عليها اذ لعله انسان اتخذ هذا الشكل لخداعها . فلم ترض سيتا بهذا العذر وطلبت من راما مطاردة الغزال واصطيادها . فأسرع راما وراء الغزال فاذا بسيتا تسمع صرخات راما . فتذهب الى لشمن وتلح عليه فى الذهاب لانقاذ راما ولكنه يرفض مغادرتها ،لأنه على يقين من أن راما لن يمسه أذى اذ هو بطل شجاع لايقدر أحد على ايذائه ، وأن راما قد أمره بحراستها والبقاء بجانبها ، وهذا الغزال وتلك الصرخات ماهى الا أشباح للأرواح الخبيثة التى تهوم على وجهها لتنشر الشقاء على الأبرياء فى الغابة وهنا تمتلىء «سيتا» غضبا على لشمن فتقول له : انك تعاملنى بالمكر والخداع وتراودك نفسك فى أن يموت راما وتتخذنى زوجة لك . وهذا مستحيل . انى زوجة مخلصة له ، وحينئذ ينفجر لشمن بكاء ويقول لها : انه لايزال يعتبرها الهة كما يعتبر أخاه الها كذلك ، ومن أعز أمانيه خدمتهما وتوفير وسائل الراحة لهما ، ولكنها تشك فى كلامه فيستعد للذهاب لنجدة راما اذا كان هو فعلا يستنجد به ، فيودعها ويتركها فى حفظ الآلهة ويخرج للبحث عن راما .

مد الليل ظلاله على الغابة .فانتهز «راون» ملك سيلان هذه الفرصة للانتقام من أجل أخته التى أهانها «لشمن» ، ورفض الزواج منها . فجاء اليها على صورة راهب . ولما رآها دهش لجمالها ووقع فى حبها من النظرة الأولى فمدحها وسألها عن اسمها ونسبها . فظنته سيتا راهبامقدسا لايكتم النوايا الخبيثة . فحكت له قصتها وغربتها فى هذه الغابة ثم سألته عن بلده ومدة اقامته فى هذه الغابةوعبادته كراهب مقدس . فقال لها : انه ليس براهب بل هو ملك سيلان وملك الغابات . ثم أعرب عن حبه الشديد لها وعرض عليها الزواج منه على أن تملك سيلان وتحكمها كما تشاء . فلما سمعت سيتا هذا الكلام أمطرته بوابل من الغضب واجابته معتزة بنفسها وناظرة اليه باحتقار ، انى زوجة مخلصة لراما البطل الشجاع ، والانسان المثالى ، والرجل المقدس كالآلهة : ثم حذرته من الاقتراب منها والمساس بها ولكنه أمسكها وحملها على عاتقه ثم أركبها عربته وفربهاالى بلاده، وكانت«سيتا»تصرخ وتولول طوال الطريق وتنادى على راما بين اللحظة والأخرى لانقاذها ولكن عبثا كانت تناديه وتصرخ عليه ، لأنها اخترقت مجال هذه الغابة واقتربت من جزيرة سيلان عابرة البحار المحيطة بها .

بذل كل من راما ولشمن المستحيل فى البحث عن « سيتا » فى الغابات والأشجار والأنهار حتى وصلاأخيرا الى جبال «ماليا»حيث لقيا «سوجريفا» ملك بلاد «ڤاناس» . وكان يصحبه قائده وساعده الأيمن « حانومان » (Hanuman) والذى استولى أخوه على عرشه وعلى زوجته ، وطرده من بلاده ليهيم على وجهه فى الغابات والجبال .

استقبل « سوجريڤا » كلا من راما ولشمن استقبالا حارا وتحركت عواطفه . حينما سمع قصة راما كلها من أول نفيه من أيودهيا الى خطف راون

وجته المخلصة . ثم اتفق كلاهما على مساعدة آخر . لقد أصر «سوجريڤا» على مساعدة راما لاعادة سيتا اليه كما أقسم راما على مساعدة سوجريڤا واعادة عرشه وزوجته اليه .

وهنا صور الشاعر الحوادث التى وقعت بصور غريبة لانكاد نصدقها فى ضوء الحقائق التاريخية فقد عرض «حانومان» فى صورة قرد وكل من فى بلاده فى سيلان يزاولون السحر والشعوذة .وكذلك لانكاد نصدق عرضه للتقاليد والمراسم والآلهة فى منطقة الجنوب على نفس الصورة الآرية ، لأن هذه المنطقة ظلت بعيدة كل البعد عن أفكار الآريين ونزعاتهم وتقاليدهم ومن المؤسف أن الشاعر قد فشل فى عرضه شئون هذه المنطقة عرضا صحيحا دقيقا أمينا من ناحية الأفكار والتقاليد ولعله لحماسته فى نزعته الآرية حاول اسباغها بالصبغة الآرية المحضة والبعد عن الحقائق التاريخية .

وطبقا لهذا التعاهد بينهما ذهب « سوجريڤا » الى أخيه وحاربه وساعده راما فى هذه المهمة حتى كلل سعى سوجريڤا بالنجاح وهزم أخاه واستعاد عرشه .

ثم يعد سوجريڤا العدة مع راما ولشمن لشن الحرب على «راون » لانقاذ سيتا من قبضته الظالمه . فيرسل عشرة آلاف من رجاله الأبطال الى هذه المهمة ليبحثوا أولا عن مكان راون فى الغابات والجبال والأوغال شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى يطلعوا على مكامنه وأسراره للزحف اليه بعدئذ .

فيتوغل هؤلاء الأبطال فى الغابات والجبال والأدغال الى جزيرة سيلان حيث يرى «حانومان» ــ قائد الجيش ــ « سيتا » حزينة كئيبة باكية تحت حراسة شديدة . وهنا وقف « حانومان » وقص للناس قصة راما كلها بصوت عال مدو حتى استولت على الناس الدهشة والحيرة لهذه الجرأة ساعة الاستماع الى هذه القصة وحتى أن سيتا التى سمعتها دهشت هى الأخرى بها ولم تصدق أذناها كل ما سمعت من «حانومان» وظنت أنها تحلم أو تتخيل ولكن حانومان دنا منها وأعطاها علامة تؤكد لها أنها من زوجها راما ، وأن راما فى طريقه الى الزحف نحو سيلان لانقاذها . وحينئذ تطير سيتا فرحا وسرورا ويشرق وجهها نورا وضياء ، وتبتسم شفتاها كما تتفتح البراعم ويعود لهما لونهما الباهر فيعود اليها جمالها واشراقها ،ثم تقبل على حانومان وتسأله عن راما وصحته وعيشه بعد خطفها ، ثم عن لشمن وعن أيودهيا ، فيخبرها بما عنده من أخبار ويطمنها على أن جيشا جرارا فى طريقه الى محاربة «راون» فى عقر داره ، ثم يستأذنها فى العودة الى راما بعد أن يأخذ منها تذكارا يؤكد سلامتها وشوقها ولهفتها الى راما .

وقد علم «راون» كيف تمكن حانومان من التوغل فى البحار والأنهار والوصول الى سيلان ومقابلة سيتا فى السجن واحراق جزء كبير من سيلان فى هذه المغامرة . فاستدعى وزراءه ومستشاريه ليعقد مجلسا للتشاور معهم حول موضوع حانومان وأخباره ، وعن استعداد راما للزحف نحو سيلان، ومحاربة راون لانقاذ سيتا . فأشار عليه معظمهم بالصمود أمام راما ومحاربته وتوجيه الهزيمة الى جيشه ، الا أن بعض المخلصين له أشاروا عليه بتسليم سيتا الى راما ومسالمته ، ولكنه رفض رأيهم متمسكا برأى الأغلبية . وكان من بين هؤلاء المخلصين «ببهشان» « وأخوراون » نفسه وهو «كومباكارانا» فاضطر « ببهشان » بعد رفض رأيه الى مغادرة سيلان والانضمام الى صفوف راما وبهذا أطلع راما على أسرار بالغة الخطورة فيما يتعلق بالحرب مع روان .

وبعد أن تم الاستعداد زحف راما الى سيلان يصحبه جيش جرار لم يسبق له مثيل ، واشترك فى هذه المعارك أعظم القواد والأبطال ومن بينهم أخوه «لشمن» البطل . ولما وصلوا الى سيلان أعلنوا الحرب على راون لاستعادة سيتا . وقدواجه راون القوة بالقوة ودارت بين الفريقين معارك دامية سقط فيها أعظم القواد والأبطال لراون حين هجم كل منهما بجيشه بهجمات عنيفة موقعة على جيش الآخرين ، فقد هجم أخو راون ثلاث مرات على جيش راما وكذلك فعل « اندراجت » ابن راون .

سجلت هذه المعارك مشاهد رائعة لايزال يرددها أبناء الهند كملحمة مقدسة . وهذه المعارك وحدها قد ترجمت الى عدة لغات ومن بينها اللغة الانجليزية بسبب وصفها الرائع للمعارك والمشاهد العظيمة للحرب المقدسة . لقد هجم راون مرتين على لشمن وهزمه فى كل مرة ولكن لشمن لم يقع فى يده . أما راما فقد حارب كبطل من الأبطال وهزم فى كل مرة كل من قابله ولم يذق طعم الهزيمة مرة من المرات طوال المعارك .

كان ابن راون ساحرا كبيرا . وقد استعرض الألعاب السحرية فى هذه المعارك واختفى عن عيون راما وأخيه لشمن وهزمهما مرات عديدة ؛ ولكنه لم يستمر فى سحره مدة طويلة بل سرعان ما قتله لشمن . وكذلك قتل راون بسيف راما أخيرا ، وبقتله انتهت المعارك وانتصر راما .

وتصف هذه الملحمة أن الآلهة كلهم كانوا مع راما فى هذه الحرب يساعدونه ويشدون أزره ويشجعونه . ولذلك انتصر على راون الشرير . ثم أمر راما باحراق جثة راون ، فوضعت أكوام من الخشب والصندل والزيت والروائح عليها ، وأشعلت النيران فيها حتى تحولت جثته الى رماد .

ثم استقبل راما « سيتا » ولكنه لم يقربها خوفا من الاشاعات التى أثيرت حول علاقتها براون وذلك بسبب اقامتها فى قصره وسيطرته عليها مدة غير يسيرة . وقد أدركت سيتا هذه الحقيقة ولذلك طلبت الى لشمن اعداد نار حامية لتلقى فيها نفسها حتى تثبت طهارتها وعفتها . فأعدت النار وألقت سيتا نفسها فيها ولكن « اله النار » حفظها من كل سوء وخرجت بريئة طاهرة من النار . فتوجه اليها راما وعانقها . ثم أمر باعداد جهاز السفر الى أيودهيا اذ انقضت الأربع عشرة سنة فى الغابات وحان بذلك الرحيل الى بلاده . وقبل مغادرته سيلان سلم سيلان التى فتحها الى « سوجريفا » الذى ساعده فى هذه المهمة لأنه وعده بذلك أثناء اقامتهما فى الغابة أيام المحنة .

وقد أعدت العدة للرحيل وخرجت القافلة الى أيودهيا مارة بالغابات والأنهار التى عاش فيها راما أيام محنته . ولما وصلت أنباء قدومه الى أيودهيا زينت البلاد بأجمل الزينات ، وأقيمت الحفلات لاستقبال العائدين من الأبطال . ولما دخل راما عاصمته تدفقت عليه الجماهير من كل جانب ترحب به وبمن معه ، وتهتف باسمه ، وتقدم له تحياتها وتهانيها . فقدمه بهارت الى العرش وأخذ أحذيته . ثم قدم عليه الناس يهنئونه ويباركون كفاحه ومن بينهم أمهاته وأخوته جميعا .

انتشرت الاشاعات مرة أخرى حول سيتا واقامتها فى سيلان تحت سيطرة راون . فأمرها راما بمغادرة القصر الى الغابة والاقامة فيها الى أن تعرض مرة أخرى ماثبت طهارتها وعفتها . فخرجت من قصرها الى الغابة ولجأت الى الراهب « والميكى » ومعها ولداها اللذان رباهما الراهب تربية رهبانية وفى هذه الغابة ماتت سيتا قبل أن يتم بينها وبين راما لقاء آخر .

حكم راما أيودهيامدة طويلة من الزمان.وعاش الشعب فى حكمه عيشة راضية طيبة تســـودها الطمأنينة والرفاهية والأمن والسلام . ولم يمسهم سوء طوال أيامه فى الحـــكم . وارتفعت قيمهم المعنوية بامتثالهم أمره لأنهم اعتقدوه انسانا مثاليا فحذوا حذوه ذراعا بذراع وشبرا بشبر فى الخير والشر ، ثم صيروه شخصية أسـطورية والهـا من الآلهة .

واليكم مشهد من أصل « الرامايانا » كنموذج لأسلوب الرامايانا ومنهجه وعرضه . وهذا المشهد فى الحقيقة مشوق ومثير يصور حياة راما فى الغابة وحضور أخيه «بهارت» اليه ليحمله على العـودة الى البلاد . ومن الجـدير بالذكر أن ملحمـــة «الرامايانا» تتكون من نوعين من المقاطع : المقطـع الأول يسمى « شاباى » (Chaupai) بالسنسكريتية وهو يتكون من ثمانية أبيات حيث ينتهى الى ختام حديث أو فكرة ثم يليه « دوها » (Doha) وهو النوع الثانى ــ الذى يتكون من بيتين كتــكملة لشـاباى .

شاباى (١) ٢٤٠

قام بهارت بين يدى أخيه «راما» وأخيه الآخر ومع صديق له ، ثم وقف صامتا احتراما ، وقلبــه خال من كل تفكير يشوبه من فرح أو حزن ، كأنه فى عبادة . ثم قال لأخيه : أغفرلى ياسيدى واعف عنى ثم وقـــع على قدميه كقطعة هــــامدة من الخشب .

وقدشعر «لشمن» ــ المسكين ــ بالذى يقصده بهارت وخيل اليه أنه فى عبادة الآن . ولا يمكنــه أن يقترب منه أو يعانقه . فقد أصبح فى حيرة شديدة بين شيئين يشده كل منهما الى جانبه : الأول أنه ينبغى له أن يقدم خدماته ويؤدى واجبــاته نحو أخيه راما . والثانى أنه يحب أخاه بهارت أيضا . وهذا الحب يشده هو الآخر اليه شـــدا عنيفا . فأيهما يختار؟ لقد أصبح الآن كطفل يلعب بطيـارة ويشدها الى جانبه لتقويم ميزانها . وأخيرا ركـع بين يدى راما وقال له : هاهو ذا بهارت جاء اليـك ليحيئك . فاستفاق راما من غيبوبته ، وحطم سكوته وقفز الى جانب بهارت راميا كل ماكان فى يـده من قوس ورمح وجعبة وعباءة .

دوهـــا

هذا الرجل العطوف الرحيم قد وضع يده على قلب أخيه «بهارت» بعد أن فاض قلبه ولم يتمـالك عواطفه فعانقه معانقة حارة . وهذا المشهد المثير قد حرك قلوب الناس جميعا .

شاباى ٢٤١

لايمكن لأحد من الشعراء مهما بلغ أمره أن يصف أو يعبر عن هذا الحب المتفـانى ، ولا ذلك اللقاء الحار لأنهما فوق التصور وفوق الأسـباب وفوق التفكير وفوق مايدور بخلد انسان .

وأنا الشاعر لا أستطيع أن أعبر عن مـدى حبهما بسبب عجزى كانسان ضعيف . ان الشاعر يبذل جهده ولكنه لايجد لمثل هذا الموقف تشبيها كاملا وكل مايستطيعه أن يأتى بهذه الكلمات أو تلك التعبيرات لوصف مايدور فى قلبه وصفا صادقا كما أن الراقصة تعرض رقصتها فى نطاق محدود لها لاتخرج عنه . والحقيقة أن حب هؤلاء الاخـــوة كفيض لانهاية له وكبحر لاحدود له . ولا يمـكن كشف غوامضه حتى لأى كاهن أو ساحر .

ولأجل ذلك لايمتلك عقلى مايصور به ولالسانى مايعبر به تعبيرا صادقا ومثلى كمثل موسيقـــار يعجز عن ايجاد نغمات جميلة بوتر من الحشيش .

حينما التقى كل من راما وبهارت تسـاقطت

(١) قد اخترنا هـذا الفصل من أصل الرامايانا من ترجمة الباحث الهندوكى الشهير « تولسيداس » (Tulsidas) من الجزء الثانى ص ٧٣٢ــ٧٣٥ .

الآلهة اضطرابا وارتعشت خشية ورهبة ، ولكن سيدهم أيقظهم من سكرتهم الحائرة فقاموا يمطرون الأزهار والورود على أولئك الاخوة ويمجدونهم ويقرظونهم .

دوها

رحب راما بـ « شاتروجانا » — شقيق بهارت — ثم بالملاح كما رحب « لشمن » بدوره بأخيه بهارت مبديا له حبه وسروره .

شاباى ٢٤٢

ورحب « لشمن » بشاتروجانا بكلمات رقيقة صادقة مخلصة ، ثم رحب بالملاح بنفس الطريقة. ثم سلم الاخوة القادمون على كل راهب من الرهبان الموجودين . فدعا لهم الرهبان بالتوفيق والسداد . ثم غمرهم السرور وعمتهم الفرحة بدون حدود . وأخيرا اتجه « بهارت » مع أخيه الى سيتا وهما فى غاية من الشوق والحنان وركعا أمامها حتى مس جبينهما تراب قدميها وأعربا لها عن تقديرهما وشوقهما وطلب بهارت منها العفو . فرفعت ستيا جبينهما من التراب وأجلستها بجوارها . فأعرب كل منهما عن تقديره وشوقه مرة أخرى . فدعت لهما سيتا من أعماق قلبها أذ غمرتها المحبة والعطف نحوهما بغير حدود حتى أصبحت لا تملك الكلمات التى تعبر بها عما يختلج فى نفسها نحوهما . فلما رأى بهارت محبة سيتا وشوقها له ذهب عنه الروع وعاد له شعوره ووعيه فاطمأن قلبه وهدأ باله واستراح ضميره .

ثم ساد المكان الهدوء والصمت الرهيب ،ولم ينطق أحد بكلمة بل ظل الجمع ساكتا صامتا لأن قلوبهم قد غمرتها الفرحة والبهجة والسرور وأصبحوا كأنهم نسوا أنفسهم . وفى هذه اللحظة حطم الملاح سكوتهم اذ قدم بين أيديهم طلبه بخضوع وأدب موجها كلامه الى راما .

دوها

يا سيدى ! قد حضرت اليك الملكة — أمك وقائد الجيش والوزير والخدم وجماهير شعب المدينة . وأيضا جاءك الراهب الكبير « واشست» بعد أن عاشوا جميعا فى قلق واضطراب وحزن على غيابك زمنا طويلا وهم يطلبون الآن عفوك وكرمك .